**الاكتساب في الرزق المستطاب للإمام الشيباني**

الأستاذ الدكتور مصطفى العبد الله الكفري

## Contents

أهمية كتاب الكسب: ..... 2
مراتب الكسب وأحكامه: ..... 2
مضمون كتاب الكسب: ..... 3
تقسيم العمل ضرورة اقتصادية وإلزام ديني: ..... 4
فوائد ومسائل ثمينة في كتاب الكسب: ..... 4
كتاب الكسب من أشهر الكتب في مجال الحث على العمل والكسب: ..... 5

## الاكتساب في الرزق المستطاب للإمام الشيباني

الأستاذ الدكتور مصطفى العبد الله الكفري

تبدو قضية العمل والبحث عن الكسب من القضايا التي كانت تشغل المجتمع الإسلامي منذ وقت مبكر، ولذا فإننا نجد مجموعة من المؤلفات التي تعظم دور العمل وتحث على الكسب في مواجهة الدعوة إلى التكاسل والتواكل بدعوى أن الرزق مكتوب من عند الله، ومن الكتب التي جاءت في هذا المضمار، كتاب الكسب أو "الاكتساب في الرزق المستطاب" للإمام محمد بن الحسن الشيباني، الذي عاش في القرن الثاني الهجري، وهو صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان.

كتاب "الكسب" يحمل عنوان الكتاب معاني واسعة شاملة لكل جوانب الارتزاق في الحياة، وهو يدل على سعة فقه الإمام محمد بن الحسن، وعمق نظره، ودقة تعبيره، فهذا تعبير لا تتخلف عنه صورة جزئية أو كلية من موارد الرزق، كالتجارة، أو الصناعة، أو الإجارة، أو الهبة، أو البيع، أو الشراء، أو الاحتطاب، أو الاصطياد، أو ما أخرجته الأرض، أو أنبتته السماء، فقد استوفى كل مصدر ارتزاق أو انتفاع يقع للإنسان.

### أهمية كتاب الكسب:

تبدو أهمية الكتاب كونه قد أغرق في الحث على الكسب وإعطاء الأهمية الاقتصادية لكل فروع النشاط الاقتصادي، وجعلها منتجة، ومباحة لجميع الأفراد، وأسهم في محاولة تأصيل المعيار الإسلامي لاعتبار إنتاجية أي عمل اقتصادي، حيث جعل العمل المنتج هو العمل المشروع، إضافة إلى ذلك فإنه أسهم في تأصيل حكم بعض المفاهيم الاقتصادية كالإنتاج، والاستهلاك، والإنفاق، وأشار إلى الحاجات الاقتصادية، وتعددها، وضرورة إشباعها، وترشيد استهلاكها، ومحدوديتها، ويرى بعض الباحثين أنه في ذلك ربما يخالف الاقتصاديين الذين يرون عدم محدودية الحاجات.

### مراتب الكسب وأحكامه:

وتوسع الشيباني في شرح مراتب الكسب وأحكامه، وحكم الكسب لجمع المال، وحكم التفاخر والتكاثر، والإسراف والاعتدال في الملبس والمأكل، كما

عالج قضايا الارتزاق، وهو يرشد إلى سبل الكسب الحلال المشروع، إلا أنه فرق بين المباح والممنوع، فأكد أن الإسلام لا يبيح للفرد أو الجماعة إنتاج ما يضر بصحة الناس أو بخلقهم أو بمجتمعهم، أو سلامة حياتهم الإنسانية، وحرم ما يسبب إنتاجه خللا في العقل أو الجسم كالخمور والمسكرات والمخدرات وإنتاج أدوات القمار واللعب، وحذر الإسلام المؤمنين من إنتاج ما يهلك الحرث والزرع والنسل ويضيع الوقت بلا جدوى، وقد أفاض في ذكر الأدلة الواضحة التي وردت في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة من خلال الأحاديث النبوية المتنوعة في هذا المجال. 1

مضمون كتاب الكسب:

ويعد الإمام محمد بن الحسن أول من أفرد لموضوع (الكسب) بالتصنيف، وأجاد البحث عن كثير من جوانبه المهمة، فقد اشتمل الكتاب مع شرحه للسرخسي على تحقيق وإيضاح أمور كثيرة بأدلة المنقول والمعقول، فاشتمل على بيان الأمور التالية:

1. فرضية طلب الكسب على كل مسلم، وبيان مراتب الطلب مع أحكامها.
2. الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل.
3. إبطال رأي أهل التقشف وحمقى أهل التصوف، من تحريم الكسب والسعي للرزق.
4. أنواع المكاسب، والتفاضل فيما بينها، والخلاف في ذلك، وأن الكسب الحلال فيه معنى المعاونة على القرب والطاعات أي نوع كان.
5. مسائل الإنفاق، وحدود الإسراف والاعتدال في كل من المأكل والملبس والمسكن.
6. فضل إعانة الرجل أخاه، ومتى تجب عليه الإعانة ومتى لا تجب.

ويشتمل الكتاب على حقائق ومعلومات ومفاهيم لبعض المصطلحات المتعلقة بمجال الكسب والسعي فيه، وكذلك لأنواعه، وأحكامه، وكان يسعى

[1] - من: مسلمون علموا العالم 29 مارس، 2011 ·

في كل ما يورد إلى إبطال مقولات الذين يدعون إلى الجلوس والكسل لأن الرزق من الله مكتوب ولا مفر منه، كما يتحدث عن التوكل والأخذ بالأسباب، والمفاضلة بين الاشتغال بالكسب والتفرغ للعبادة، والشكر على الغنى أم الصبر على الفقر، وبعد ذلك يبدأ بشرح تفاصيل المفاضلة بين التجارة والصناعة، والحاجات الاقتصادية والاستعمالات الواردة عليها، وتطرق إلى بعض المشكلات الاقتصادية التي تنتج عن الحاجات اللانهائية والموارد الإنتاجية النادرة، مشيرا إلى التخصص في العمل الذي يحقق المصالح المعيشية، فالفقير بحاجة إلى مال الغني والغني بحاجة إلى عمل الفقير..

## تقسيم العمل ضرورة اقتصادية وإلزام ديني:

وهكذا تدور عجلة الحياة، فتقسيم العمل ليس فقط ضرورة اقتصادية بل هو إلزام ديني ووسيلة للحصول على ثواب من الله تعالى لتحقيق المتطلبات والحاجات الاقتصادية للجماعة. وقد ذكر الشيباني أن الاكتساب فريضة على كل مسلم، وأسهب في التدليل على ذلك بأن العزوف عن العمل النافع يوم أن يشيع ويعم المجتمع المسلم تأثم الأمة كلها، فذلك من فروض الكفاية التي إذا لم يقم به البعض أثمت الأمة كلها وأخرجها ذلك إلى أن تكون عالة على غيرها من الأمم.

## فوائد ومسائل ثمينة في كتاب الكسب:

وفي ثنايا الكتاب وشرحه توجد فوائد ومسائل ثمينة، مثل:

- مسألة: الاشتغال بالكسب أفضل أم التفرغ للعبادة بعدما اكتسب ما لا بد له منه؟
- مسألة: صفة الفقر أفضل أم صفة الغنى؟
- مسألة: الشكر على الغنى أفضل أم الصبر على الفقر؟
- مسألة: جواز بل وجوب السؤال عند الحاجة،
- مسالة: المعطي أفضل من الآخذ مطلقاً أم فيه تفصيل؟

كما جاء فيه بيان فرضية طلب العلم على تفاوت في مراتب الطلب، ثم فرضية تبليغه وأدائه إلى الناس، مع ذكر آداب مهمة للتبليغ لا يسع جهلها.

وقد ذكر السرخسي سبب تصنيف الإمام محمد لهذا الكتاب، فقال: "إن الإمام محمداً صنف هذا الكتاب في الزهد، على ما حكي أنه لما فرغ من تصنيف الكتب، قيل له: ألا صنفت في الزهد والورع شيئاً؟ فقال: صنفت كتاب البيوع (يريد أن المرء إذا طاب مكسبه حسن عمله)، ثم أخذ في تصنيف هذا الكتاب، فاعترض له داء فجف دماغه ولم يتم مراده، ويحكى أنه قيل له: فهرس لنا ما كنت تريد أن تصنفه، ففهرس لهم ألف باب كان يريد أن يصنفها في الزهد والورع... وهذا الكتاب أول تصانيفه في الزهد والورع...". عدد صفحات الكتاب 360 صفحة.

كتاب الكسب من أشهر الكتب في مجال الحث على العمل والكسب:

يعد كتاب الكسب للشيباني من أشهر الكتب التي ألفت في مجال الحث على العمل والكسب والاجتهاد فيه، وذلك واضح من عنوان كتابه المذكور آنفاً، فقد جعل العمل في أولوية السلم الاقتصادي المفروض على كل مسلم، وحشد في بداية حديثه مجموعة من الآيات والأحاديث التي تحث على الكسب، فقال: "إن الله فرض على العباد الاكتساب لطلب المعاش ليستعينوا به على طاعة الله، والله يقول في كتابه العزيز {وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا}، فجعل الاكتساب سببا للعبادة، وقال }وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم}، أي بجنايتكم على أنفسكم، فقد سمى جناية المرء على نفسه كسبا". ثم بعد أن أورد هذه الآيات الكريمة وغيرها، جاء بالأحاديث الدالة على فضل الكسب، فقال: "ورد عن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ أنه قال "طلب الكسب فريضة على كل مسلم"، وفي رواية قال "طلب الكسب بعد الصلاة الفريضة بعد الفريضة"، وقال عليه السلام "طلب الحلال كمقارعة الأبطال، ومن بات كالا من طلب الحلال بات مغفورا له". ثم بعد أن فرغ من ذكر مجموعة كبيرة من الأحاديث، عرج على سير الصحابة، فقال: "... وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقدم درجة الكسب على درجة الجهاد، فيقول: لأن أموت بين شعبتي رحلي أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله أحب إلى من أن أُقتل في سبيل الله، لأن الله تعالى قدم الذين

يضربون في الأرض يبتغون من فضله على المجاهدين، بقوله تعالى (وآخرون يضربون في الأرض).

الأستاذ الدكتور مصطفى العبد الله الكفري

كلية الاقتصاد – جامعة دمشق

Email: moustafa.alkafri@gmail.com